سياسة قتل الوقت (*)

للأستاذ سيد قطب

عمر الفرد قصير ، ورحلته فى هذه الأرض خاطفة ، فإذا كان للحى مايشكوه من هذه الناحية ، فهو قصر المدى الممنوح له عن تحقيق آماله ، وشعوره بأزمة فى الوقت لاتهيئ الفرصة لاكمالها .

ولكن الملاحظ فى مصر عكس هذا على خط مستقيم ، فكل ماتقع عليه العين يوحى بأن هناك وقتا فائضا عن حاجة أهلها لايعرفون كيف ينفقونه ، وهم يعبرون عن هذه الظاهرة فى أحاديثهم وتصرفاتهم بعبارة " قتل الوقت " وهو تعبير دقيق يشعر بأنهم فى معركة دائمة مع الوقت الفائض الذى لايدرون كيف ينفقونه فيقتلونه .

يقول لك صديقك : تعال نقعد على هذا المقهى " نضيع الوقت " أو أنا أشترى المجلة الفلانية " لقتل الوقت " أو لقد كنا فى الليلة الماضية نمضى الوقت فى السينما . . إلى آخر هذه التعبيرات المعروفة فى أحاديثنا العادية ، والتى نشعر جميعا بأن هناك ضيقا بالوقت الفائض عن الحاجة ، لا يجد أصحابه ماينفقونه فيه فيتفننون فى " قتله " و إضاعته وتمضيته ، والبارع منهم من يبتكر أحسن الوسائل " لقتل الوقت " .

وليست المسألة مسألة كلمات تقال ، ولكنها أعمال تقع ، وظواهر تدل . . . فهذه المقاهى التى تكاد تصبح فى عدد البيوت ، وهؤلاء الرواد الكثيرون الذين يقضون فيها الساعات الطوال ، يحلقون بفضول غريب فى المارة من الرجال والنساء ، ويلوون أعناقهم هنا وهناك كلما مرت عابرة تجتاز الطريق ، إما لقصد شريف ، و إما للتسكع ولفت الأنظار أو يلعبون مختلف ألعاب التسلية ومنها " القمار " بالورق أو بسواه .

وهؤلاء المتسكعون فى الشوارع ، يقفون أمام كل " ناتريئة " زمنا طويلا وهم لايريدون الشراء ، و ينتقلون من " رصيف " إلى " رصيف " يتصفحون وجوه المارة ووجوه الجالسين على المقاهى ، ويقرأون شتى الإعلانات على واجهات المتاجر ودور السينما وسواها ، على طول الطريق ، و يثير فضولهم كل حادث صغير فى الشارع ، فيتجمعون حوله للمشاهدة أو للسؤال والاستقصاء وليس لهم فيه قليل ولا كثير .

(*) نص المحاضرة التى أذيعت فى البرنامج الثقافى للوزارة مساء ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٤

وهذه الصحف الأسبوعية التى تزحم أيام الأسبوع ، وتظهر منها اثنتان أو ثلاثة فى اليوم وحشوها الأقاويل الفارغة ، والفضول المزرى ، والتلصص على داخليات الناس ، ونشر تفاهات الحياة اليومية للراقصات والممثلات وأشباههن ، والتهالك على كل مايثير الغرائز المنحطة والفضول المذموم فى نفوس القارئات والقراء .

وهذه الأفلام التافهة فى موضوعها وتمثيلها وأغانيها ومشاهدها ، وكلها يبعد عن وقائع الحياة الجدية ، وعن كل شعور إنسانى سليم ، ليحاول أن يستثير العزيزة ، أو أن يزيف الحياة ويحيلها مساخا من صنع خيال سقيم ، ثم يجد من النظارة الإقبال ولا سيما من الشبان والشواب ، ممن هم فى دور التعليم والتحصيل .

وهذه الأغانى الرخيصة ، والمنولوجات العابثة ، وهى جميعها تجتهد فى البعد عن تصوير العواطف الإنسانية الصحيحة ، إلى تصوير العواطف الهابطة والمريضة ، حتى الحب . تلك العاطفة الإنسانية التى هى عنصر من عناصر البناء الكونى ، تمسخها هذه الأغانى بألفاظها وبأنغامها وبنبراتها ، فاذا الحب بهيمة تقع على بهيمة ، أو تخيلات مريضة لاوجود لها فى خاطر كريم . ومع هذا تجد من المستمعين والمستمعات كل إقبال .

كل هذه الظواهر تشعر بأن هناك وقتا رخيصا لا يجد أصحابه وصاحباته ماينفق فيه ، فيحاولون ما استطاعوا أن يقتلوه ، وهم يقتلونه فعلا فى الجلوس على المقهى ، أو التسكع فى الطريق ، أو تصفح المجلات والروايات التافهة ، أو مشاهدة الأفلام الرخيصة أو الاستماع إلى الأغانى المريضة . . إلى آخر الوسائل الكفيلة بقتل الوقت ، فى هذا العمر القصير المحدود وفى تلك المرحلة الخاطفة على هذه الأرض الدوارة .

* * *

ماعلة هذه الظاهرة السيئة فى حياتنا المصرية ؟

العلة الأولى هى فراغ الحياة ورخصها عند الكثيرات والكثيرين ، هى حياة منحوها فلم يعرفوا لها هدفا ولاغاية ، ولم يجدوا فى نفوسهم من المطامح والآمال أو من المشاعر والأحاسيس مايملأ فراغها ويرفع قيمتها ، ويجعلها فرصة نادرة للعمل المثمر والتفكير المفيد والإحساس النبيل .

والعلة الثانية هى سوء النشأة الذى ترك هذه العادات الضارة فغرس فى النفس بالقدوة والإيحاء ، فنمت هذه المخلوقات وفى نفوسها ضيق بالوقت الفائض واتجاه إلى إضاعة مثل هذه الوجوه .

والعلة الثالثة وهى فرع من العلة الثانية ، تلك البيوت التى لا تجذب اليها أهلها ، ولا تخلق لهم من الوسائل ما يقضون به أوقات فراغهم ، ولا من الاهتمامات ما يصرفون فيه طاقتهم الفائضة .

وللمدرسة نصيبها — كما للبيت نصيبه — فالمدرسة المصرية عامل تربية ردئ من هذه الناحية ، فهي سجن أو تكاد ، ليس فيها إلا الدرس الجاف أو اللعب المهوش . وحتى ذلك الذى يسمونه " النشاط المدرسى " قد استحال هو الآخر دروسا جافة أو ألعابا مهملة لحب الاطلاع ، وحب الاستطلاع ، كلاهما تقتله المدرسة بطريقتها التعليمية العتيقة ، وبدروسها المفككة الجافة ، وبكتبها الرديئة التى لا تشويق فيها ولا جمال . وهى لا تزود التلميذ بعادة طيبة واحدة لشغل الفراغ ، ولا بهواية نافعة تصرف الطاقة الفائضة ، وتضمن الاتزان العاطفى فى فورة الشباب .

واضاعة الوقت على هذا النحو اسراف فى أيام الحياة المحدودة القصيرة ، وتبذير فى قوى الفرد والشعب . وتبذير بالركود ان لم يكن تذييرا بالانحلال . فالأمة الفارغة أمة منحلة ، والمسافة بين الفراغ والانحلال ليست بعيدة على كل حال .

لذلك يجب ألا ننظر الى الأمر دون اكتراث ، بل يجب أن نبحث فى هذه العلل ، ونحاول أن نجد لها العلاج .

وأنا أعتقد أن لكل من الملابسات السياسية والأوضاع الاجتماعية والاتجاهات الصحفية يدا فى هذه العلل ، كما أنها تملك وسائل العلاج أيضا .

حينما كانت لهذا الشعب أهداف قومية كبيرة ، لم تكن حياة أفراده تافهة ، ولم تكن همومهم صغيرة . والفرد يرتفع فى نظر نفسه حينما ترتفع أهداف أمته ، ويحس بقيمته وقت جهوده حينما تحس الأمة به وبمجهوده . وحينما يوجد الهدف الشعبى العظيم تقع حركة تجنيد اختيارية بدون شعور . وهذا ما حدث فى الثورة المصرية الكبرى وما يحدث عند ما يواجه أى شعب خطرا على كيانه .

فاذا نحن استطعنا أن نرد الى الأهداف القومية جلالها ، وأن نشعر أفراد الشعب بقيمتها وأن نشغل نفوسهم من أجلها ، ونشغل تفكيرهم بها ، فاننا نرد اليهم ايمانهم بقيمة الحياة ذاتها ، ونشعرهم بأن لهم وظيفة كبرى يؤدونها . ومتى ارتفعت قيمة الحياة عزت أوقاتها عن الاضاعة والتقتيل والعبث بلا جدال .

وليست أهدافنا القومية هى مطالبنا السياسية وحدها ، فالمطالب السياسية لم تعد كل مطالب الشعوب فى هذه الأيام .

ولعل الاصلاح الاجتماعى — فى حالة كحالة الشعب المصرى — من أول الأهداف القومية التى يجب أن تشغل الأفكار ، وأن توجه اليها الجهود ، وأن تنفق فيها الأوقات ،

وليس أجدر بالأريحية الانسانية والحماسة القومية من شؤون الملايين من العرايا الجياع المرضى الجهال الذين يتألف منهم الشعب فى صميمه .

إن حالة هؤلاء الملايين من المخلوقات البشرية التعسة فى الريف وفى الأحياء الوطنية بالمدن ، اتهز النفس البشرية من أعماقها ، حين تجد من يهزها ، ومن يعرف الطريق الصحيح اليها ، ومن يوقظ فيها الحساسية الانسانية الكامنة .

وأقرب طريق الى ايقاظ هذه الحساسية ليست الخطب الحماسية ، ولا الكلمات الرنانة ، ولكنها البيانات الدقيقة ، والوصف الحقيق ، والتصوير الصادق لحالة هذه الطبقات الفقيرة . وللوسائل التى تملكها الأمة لانقاذ هذه الطبقات ، وللطرق المفتوحة أمام كل فرد لأداء واجبه فى حدود ما يستطيع ثم استثارة اريحيته الانسانية وأحاسيسه القومية بعد هذا البيان .

وذلك واجب الصحافة والاذاعة والسينما والمسرح والمدرسة أيضا ، واجب الصحافة التى تملك توجيه الرأى العام المثقف ، وواجب الاذاعة والسينما والمسرح ، وهى التى تستطيع مخاطبة الجمهور كله بما فيه غير المثقفين وواجب المدرسة وهى التى تتولى الاعداد والتوجيه من الأساس .

ولست أستطيع أن أتصور صحافة ولا سينما ولا اذاعة ولا مسرحا ولا مدرسة تعيش فى هذا العصر ، وفى شعب كالشعب المصرى ، ثم لا تجعل الشؤون الاجتماعيه جزءا من برامجها ؛ ولست أحب الغلو الذى يدعو الى أن تقتصر هذه الوسائل على التوجيه الاجتماعى المباشر ، فللفنون الطليقة وللأفكار العامة قيمتها الانسانية التى لا يغفل أحد شأنها حتى فى الاصلاح الاجتماعى بطريقة غير مباشرة . ولكن البحوث الاجتماعية والتوجيهات المباشرة جزء لا يتجزأ من وظيفة الصحافة والاذاعة والسينما والمسرح والمدرسة وكل وسائل الثقافة الأخرى .

والطاقة التى يملكها قراء الصحف ومستمعو الاذاعة ودور المسرح والسينما طاقة محدودة وهى إما أن تصرف فى الهذر والفراغ والاستجابة الغريزية ، والفضول الرخيص ، وإما أن تصرف فى التهذيب الروحى والتنور الفكرى والتوجه الاجتماعى . وفى الحالة الأولى ما يزرى بكرامة الانسان فى ذاته . ويعطل جهده كفرد وكعضو فى شعب ، وفى الحالة الثانية ما يسمو به كانسان ، وما يرتفع به كعضو فى جماعة .

أما المدرسة فقد آن الآوان لوصلها بالمجتمع . والقضاء على هذه العزلة التى تعانيها ببرامجها ومدرسيها وتلاميذها وجوها المدرسى كله . آن الآوان لتكون الدراسات الاجتماعية

النظرية والعملية فى المحيط المدرسى جزءا لا يتجزأ من برامجها العامة . وحين يجد المدرس ويجد التلميذ أنهما مكلفان دراسة ناحية من نواحى المجتمع نظريا وعمليا ، سيفتح أمامهما مجال جديد لانفاق الطاقة الزائدة والاهتمامات الحبيسة والفراغ الميسور .

ولقد استغرقتنا الأهداف الاجتماعية فى الحديث ، ومن حقها أن تستغرقنا ، ولكن الى جانبها اهتمامات فنية وإنسانية ، يجب أن يكون لها حساب فى حياة كل فرد لأنها كفيلة أن ترفع من قيمة الحياة فى نظره . وأن تغلى من سعر الوقت فى حسابه ، فالقراءة ومشاهدة معارض التصوير ومتاحف التماثيل ، والهوايات المختلفة التى تلبى الغرائز ، والمواهب وتنميها وترتفع بها وتزكيها ... كلها عادات واتجاهات تخلقها التربية المنزلية والتربية المدرسية بالقدوة والتعليم ، كما تنميها وسائل التثقيف العامة من صحافة واذاعة وسينما ومسرح بالإيحاء والتوجيه ، وهى جميعا تشعر الفرد بقيمة الوقت ، فيتحرج من اضاعته فيما يؤذى خلقه ويضيق أفقه . على طريقة الآلاف من رواد المقاهى ، والمتسكعين فى الطرقات العامة والمستمعين للرخيص من الأغانى ، والمشاهدين للتافه من الروايات والأفلام وهم الكثرة الكثيرة من سكان المدن مع الأسف الشديد .

إن معركة قتل الوقت يجب أن تقف فى مصر ، فهذه الساعات الضائعة هى العمر الغالى ، الذى يوهب للفرد مرة واحدة ، فيمر مر السحاب ، حيث ينتهى الأجل وتطوى صفحات الكتاب .

سيد قطب

بصرت بالراحة العظمى فلم أرها تنال إلا على جسر من التعب

"أبو تمام"